

عُلماء الأصوات العرب سبقوا اللغويين المحرفين ابتكار نظرية التماس

الدكتور عبدالعزيز مطر

جامعة الكويت

ثم اضاف «دانيال جونز» ان هذا الاصطلاح قد يتسع فيشمل الحالات التي يتم فيها ادغام احد الصوتين في الآخر ، بحيث يكونان صوتا واحدا ويسمى هذا النوع «التماسل المجمع او الادغام» (Coalescent assimilation)

ويشرح هذا التعريف في معادلتين على النحو التالي :

- 1 - التماسل المادي : الصوت : A يستبدل بالصوت B تحت تأثير الصوت : C
- 2 - التماسل المجمع (الادغام) : الصوتان : A, C قد اثر كل منهما على الآخر ، وادغما واجتمعا في الصوت الموحد : B

وتكتفي من امثلته بما يأتي :

يمثل «جونز» للتماسل المادي غير التاريخي بالتغير الذي يطرا على صوت ال S في الكلمتين : (Horse, shoe) عندما تتركبان معا نحو Horse-shoe (حدوة الحصان) حيث تنطق ال S هكذا Sh (ش) ويمثل للتماسل المجمع (الادغام) Coalescent Assimilation بالكلمتين you don't فانهما تنطقان معا هكذا (Dountshu)

ظاهرة صوتية ذات اثر في التطور اللغوي ، اعترف بها ، ورسم حدودها ، وبين اثرها اللغويون المحدثون ، ويمثلهم في هذا البحث : اللغوي الانجليزي «دانيال جونز» (Daniel Jones) واللغوي العربي الدكتور ابراهيم انيس .

وسيفيف هذا البحث حقيقة جديدة ، هي ان هذه الظاهرة الصوتية قد عرفت ايضا عند اللغويين القدماء : ويمثلهم : سيبويه (ابو بشر عمرو ت 180 هـ) وابن جني (ابو الفتح عثمان ت 392 هـ) . وسنبدا اولا بتعريف هذه الظاهرة ، وتحديد معالمها ، وبيان اثرها في التطور الصوتي عند المحدثين ، ثم نعرض ما قاله لغويونا القدماء في هذا الصدد .

1 - التماسل عند المحدثين

عقد دانيال جونز فصلا في كتابه (1) (An out line of english phonetics) تناول فيه ظاهرة التماسل (Assimilation) واثرا في تطور اصوات اللغة الانجليزية

وقد عرف التماسل بأنه « استبدال صوت باخر تحت تأثير صوت ثالث يكون مجاورا له في الكلمة او في الجملة »

(1) صفحة : 217 الفقرات من : 837 الى 853

كذلك يمثل «جونسز» بالكلمتين Roast beef حيث تحولت الـ S الى Z تحت تأثير صوت الـ B المجهور .

ومن العرب المحدثين عقد الدكتور ابراهيم انيس فصلا في كتابه « الاصوات اللغوية » (2) تحت عنوان : المائلة Assimilation شرح فيه الظاهرة ، وبين نوعيها الرجعي (3) والتقدمي (4) ومثل لكل منهما ، ثم وضع درجات تآثر الاصوات المتجاورة .

وقال في شرح المائلة .. « تتأثر الاصوات اللغوية بعضها ببعض في المتصل من الكلام ... ومجاورة الاصوات بعضها لبعض في الكلام المتصل ، هي السر فيما قد يصيب بعض الاصوات من تأثر » .

والاصوات في تأثرها تهدف الى نوع من المائلة او المشابهة بينها ، ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات او الخارج ، ويمكن ان يسمى هذا التأثير بالانسجام الصوتي بين اصوات اللفظة . وهذه ظاهرة شائعة في كل اللغات بصفة عامة ، غير ان اللغات تختلف في نسبة التأثير وفي نوعه (5)

ومع ان استاذي قد وفي هذه الظاهرة حقها شرحا وتوضيحا ، وتمثيلا وتعديلا ، لحظت انه لم يربط بين ما قرره المحدثون وما ذكره سيبويه وابن جني ، على ما سنوضحه بعد .

ونعني الآن في توضيح هذه الظاهرة ، وتحديد معانيها والتمثيل لها بأمثلة من الفصحى واللهجات الحديثة ، ثم نقف بعرض آراء سيبويه وابن جني وتحليلها .

اذا تجاور صوتان متجاورا تاما ، بحيث لا يفصل بينهما صوت لين (حركة) وكانا مختلفين في صفة الجهر والهمس ، او الشدة والرخاوة ، او الاطباق والانفتاح ، فان هذين الصوتين يميلان الى الانسجام بأن يصبحا متماثلين في الصفة ..

واذا كان هذان الصوتان المتجاوران متقاربين مخرجا او صفة ، او متجانسين ، فان التماثل بينهما قد يصل الى ان يفنى احدهما في الآخر بادغامه فيه .

وفيما يلي توضيح لهذا التحديد للتماثل ، وبيان درجات التأثير بين الصوتين المتجاورين :

1 - الجهر والهمس : يقول الصرفيون ان فاء (افتعل) اذا كانت زايا قلبت التاء دالا ، نحو ازدرج ، ازدهى ، ازدان ، ازدلف ...

فما التفسير الصوتي لقلب التاء في : ازدرج ، وازدهى ، وازدان ، وازدلف وامثالها دالا ؟

في ضوء ظاهرة التماثل نقول : ان التاء قد جاورت الزاي ، والتجاور هنا تام ، اذ لم يفصل بين الزاي والتاء حركة . ولما كانت الزاي صوتا مجهورا وكانت التاء صوتا مهموسا فان الصوتين يميلان الى تحقيق الانسجام بينهما ، وهنا تأثرت التاء المهموسة بالزاي المجهورة فجهر بها ، وحين يجهر بالتاء تصبح دالا لان التاء والدال من مخرج واحد ، فاصبحت الدال والزاي متقاربين كلاهما مجهور ..

ويسمى التأثير الذي تم في هذه الامثلة تأثرا تقدميا ، أي أن الصوت الثاني وهو التاء تأثر بالاول وهو الزاي .

وفي قراءة ابن مسعود : (اذا بعثر ما في القبور) اي بعثر ، يقال ان العين وهي صوت مجهور ، جاورت التاء وهي صوت مهموس ، فتأثرت العين بالتاء فهيمت ، وحين همست العين تصبح حاء لان الحاء هي النظير المهموس للعين المجهورة ، ويسمى التأثير الذي تم هنا تأثرا تخلفيا أي أن الصوت الاول وهو العين ، تأثر بالتاني وهو التاء .

وفي اللهجة المصرية تنطق : جهاز تسجيل ، هكذا : جهاس تـرجـيل .

(2) الفصل السابع : من ص 126 الى 148 (ط 3 - 1961)

(3) (Régressive)

(4) (Progressive)

(5) الاصوات اللغوية : 126 .

3 - الاطباق والانفتاح : يقول الصرفيون : اذا كانت فاء (افتعل) صوتا من اصوات الاطباق : الصاد او الضاد او الطاء او الظاء ، قلبت تاء الانفتاح طاء ، نحو : اضطرب ، واضطرب ، واطرد واططم ، وهي صيغ (افتعل) من الضرب ، والضرب ، والطرْد ، والظلم ..

والذي حدث هنا هو قلب الصوت المنفتح وهو التاء ، الى نظيره المطبق وهو الطاء ، بسبب مجاورة التاء للصوت المطبق ، وهو الصاد ، او الضاد ، او الطاء او الظاء ..

والتأثير هنا تقديمي ، اي ان الصوت الثاني تأثر بالاول . وانما تم هذا التأثير ، ليتحقق الانسجام بين الصوتين المتجاورين بحيث يكونان مطبقين .

وفى اللهجات نقول : مصطرة اي مسطرة ، والماء يصخن ، بقلب السين صاداً ، وتفسير ذلك ان الصوت المنفتح وهو السين جاور الصوت المطبق ، وهو الطاء في : مسطرة ، والصوت المستعلى وهو الخاء في : يصخن ، فقلبت السين الى نظيرها المطبق وهو الصاد ، تحقيقاً للانسجام بين الصوتين المتجاورين .

4 - انتقال مجرى الهواء : يقرر علماء الاصوات ان مجرى الهواء مع الاصوات العربية يكون من الفم ، الا في صوتي الميم والنون ، فان مجرى الهواء معهما من الانف ..

وقد ينتقل مجرى الهواء مع اصوات الفم الى الانف ، وقد ينتقل من الانف الى الفم ، تحت ظروف لغوية خاصة ، هي التماثل غالباً ..

ومن امثلة ذلك : ما رواه سيبويه في كتابه : (2/ 412) من قولهم : اصحمترا ، يريد اصحب مطرا . فقد انتقل مجرى الهواء مع الباء الى الانف ، بسبب مجاورة الميم . وحين ينتقل مجرى الهواء مع الباء الى الانف تصبح ميماً ، ثم حدث الادغام . كذلك انتقل مجرى الهواء مع النون من الانف الى الفم في مثل : ان لم تفعل ، حيث ادغمت النون في اللام ، وذلك ان النون ومجرى الهواء من الانف ، جاورت اللام ، ومجرى الهواء معها من الفم ، فقلبت النون لاما ثم حدث الادغام .

5 - انتقال مخرج الصوت : روى سيبويه في كتابه (2 / 414) انه يقال في منبر : صبر بالميم

وقد حدث هنا نوعان من التأثير : تأثر الزاي المجهورة في « جهاز » بالتاء المهموسة في « تسجيل » ، تأثراً تخلفياً ، فحسب بالزاي فاصبحت سيناً . وتأثر السين المهموسة في « تسجيل » بالجيم المجهورة تأثراً تخلفياً ايضاً ، فجهر بها ، وحين يجهر بالسين تصبح زاياً لانها نظيرها المجهور .

وفى اللهجة المصرية ايضاً ننتقل : « خمس دقائق » هكذا : خمز دآييه . وننتقل « بالنسبة » هكذا : « بالنزبة » . « وعلى حسب وداد قلبي » هكذا : « على حزب » .. والذي حدث هنا تماثل قلب فيه الصوت المهموس وهو السين الى نظيره المجهور وهو الزاي ، بسبب مجاورة السين للصوت المجهور ، وهو الدال ، او الباء ، تحقيقاً للانسجام الصوتي .

كذلك ننتقل كلمة « اشدق » وكلمة « مشغول » بجهر الشين ، بحيث تقترب من الجيم الشامية (ج) وتفسير ذلك ان الشين ، وهي مهموسة ، جاورت الدال وهي مجهورة ، فجهر بالشين ، ليصبح الصوتان المتجاوران مجهورين .

2 - الشدة والرخاوة : قال اللغويون ان كلمة ست (للعدد 6) اصلها : سدس ، فقلبت السين تاء فاصبحت سدت ، ثم ادغمت الدال في التاء . وتفسير الحالة الاولى ان السين وهي صورة رخو ، جاورت الدال وهي صوت شديد ، فتأثر الصوت الثاني بالاول تأثراً تقديمياً فقلبت السين الى نظيرها الشديد وهو التاء . اما الحالة الثانية فقد نرى فيها الصوت الاول ، وهو الدال ، في الصوت الثاني وهو التاء ، والتأثر هنا تخلفي .

وقوله تعالى : (وجاءت سيارة) قريء بادغام التاء في السين . وتفسير ذلك ان التاء وهي صوت شديد جاورت السين وهي صوت رخو ، فتأثر الصوت الاول بالتالي فقلبت التاء الى نظيرها الرخو وهو السين . ثم حدث الادغام .

وقوله تعالى : (ولولا اذ دخلت جنتك) قريء بادغام الدال في الدال وتفسير ذلك ان الدال وهي صوت رخو جاورت الدال وهي صوت شديد فقلبت الدال دالاً ليصبح الصوتان شديدين ، ثم حدث الادغام .

ومن ذلك قلب الباء الشديدة الى نظيرها الرخو ، وهو الفاء ، في قوله تعالى : (ان تعجب فعجب) وبعد القلب حدث الادغام .

الصوتين في الآخر ، بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً كالصوت الثاني غالباً أي أنه تأثر تخلفي ..

فإذا تجاوز صوتين متقاربين ، أو متجانسين نحو :
انمت طالباً ، ادغم الصوت الأول وهو التاء في الثاني وهو الطاء ، فنطقت الكلمتان : المتطالباً (سيبويه : 418/2) ونحو : حدثهم أي حدثتهم ، حيث ادغمت التاء في التاء (سيبويه 420/2)

ونحو خبطه أي خبطته ، حيث ادغمت التاء في الطاء ، والتأثر هنا تقدمي حيث تأثر الصوت الثاني بالاول ففني فيه (سيبويه 2 / 423)

وكذلك قوله تعالى : (وجاءت سيارة) حيث ادغمت التاء في السين .

والتجاور في الامثلة السابقة تام ، حيث لم يفصل بين الصوتين بصوت لين ويسمى هذا الادغام عند القراء : « الادغام الصغير » .

وقد يحدث الادغام مع وجود فاصل هو حركة قصيرة ، وهذا النوع وارد في قراءة أبي عمرو ابن العلاء ، نحو قوله تعالى : (تكلاً من حيث شئتما) حيث ادغمت التاء في الشين ، مع وجود فاصل بينهما هو الضمة في (حيث) وكقوله تعالى : (وإذا النفوس زوجت) بادغام السين في الراي مع وجود فاصل بينهما هو ضمة (النفوس) .

7 - التماثل بين اصوات اللين : كما يحدث التماثل بين الاصوات الساكنة ، يحدث بين اصوات اللين تحقيقاً للانسجام الصوتي بينهما ، هو المسمى عند المحللين (Vowel harmony)

ويمكن ان نمثل له بما روي ان بني تميم كانوا يقولون : لثيم ، شهيد ، سعيد ، ونحيف ، ورغيف ونخيل ، بكسر اوائلها (6) وما يشيع في بعض اللهجات الحديثة من كسر الاول في نحو سعيد ونشيط وكبير ... ونحو تحية ، بكسر التاء ، تحقيقاً للانسجام بين صوتي اللين المتجاورين .

ومن ذلك فتح الميم في مروحة ومبرد في اللهجات الحديثة ، بدلا من كسرها كما تقضي العربية الفصحى في صيغة اسم الآلة .

ب - المصارفة عند سيبويه هي التماثل عند المحللين :

وفي القراءان الكريم : (انبئهم) و (من بعد) اجمع القراء على قلب النون ميماً .

وفي لهجة الكويت نقول : السنبولة بدل السنبولة (نوع من السفن الصغيرة او القوارب ذكره الهمخشري في الاساس (قرب) .

والتفسير الصوتي لما حدث هنا : ان النون جاورت الباء ، وتحقيقاً للانسجام بينهما انتقل مخرج النون الى مخرج الباء ، وحين تنتقل النون الى هذا المخرج تنطق ميماً ، لان الميم كالنون من اصوات الانف ، وكلاهما صوت متوسط بين الشدة والرخاوة ، ووجود الميم مجاورة للباء يحقق انسجاماً اكثر لان الميم في اصوات الانف ، تناظر الباء في اصوات الفم .

كذلك ينتقل مخرج القاف في لهجة الكويت الى وسط الحنك اذا جاورت صوت اللين الامامي (الكسرة او ياء المد او الفتحة المرفقة او الف المد) نحو : جربه ، جدر ، رفيع ، وجاسم ، بدل قرية ، وقدر ، ورفيق ، وقاسم .

وتفسير ذلك : ان صوت اللين الامامي جاور القاف ، ولما كان صوت اللين الامامي صوتاً يرتفع معه اول اللسان نحو الحنك ، او يهبط نحو قاع الفم ، فقد جذب مخرج القاف الى الامام ، فخرجت من مخرج الجيم ، لان كليهما صوت شديد مجهور .

كذلك ينتقل مخرج الكاف الى الامام في لهجة الكويت ، اذا جاورت الكاف صوتاً من اصوات اللين الامامية ، فيجذبها الى وسط الحنك ، فتخرج من مخرج الشين ، والجيم ، فتخرج صوتاً بينهما ، وهو صوت كالجيم الفارسية ، او كصوت (ch) في الكلمة الانجليزية : (Chicken)

وذلك مثل : جبير ، جلب ، باجر ، اي كبير وكلب وباجر .

وفي الحالات الخمس السابقة يبدو اثر ظاهرة التماثل واضحا ، حيث قلب صوت الى صوت ينظره ، تحت تأثير صوت ثالث ..

6 - الادغام : يعد الادغام أقصى درجات التأثر بين الاصوات المتجاورة حيث يفنى أحد

تناول سيبويه في أكثر من موضع من كتابه ، ما يحدث من تقريب بين الأصوات المتجاورة سمي هذه الظاهرة المضارعة (2/426) وسماها التقريب أيضا (259/2، 427) كما تناول أقصى درجات التأثير بين المتجاورين ، أي الإدغام (2/404 - 426) .

وتتضح نظرية التماثل عند سيبويه في الباب الذي عقده تحت عنوان : « هذا باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه ، والحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه » (2/426)

ويعني سيبويه بالحرف الذي يضارع به حرف من موضعه : « الصاد الساكنة اذا كانت بعدها الدال ، وذلك نحو : مصدر ، واصدر ، والتصدير »

وبعد ان يبين سيبويه ان ادغام الصاد في الدال ، او ابدال الدال حرفا يناسب الصاد كالطاء غير ممكن في هذه الأمثلة ، يفسر ما حدث في هذه الأمثلة بأنه مضارعة الصاد بالزاي ، أي تقريبها منها ، لان الزاي مجبورة كالدال ، فيتحقق بهذا الانسجام بين المتجاورين . وقد فسر سيبويه هذه المضارعة في موضع آخر من كتابه (2/259) اذ قال ، وهو يعمل امالة الالف الى الياء بسبب الكسرة ، بأنها تقريب بين الحرفين : « ارادوا ان يقربوها منها كما قربوا في الإدغام الصاد من الزاي حين قالوا صدر ، فقربها من الزاي والصاد التماس الخفة ، لان الصاد قريبة من الدال فقربها من شبه الحروف من موضعها بالدال » .

ولكن سيبويه في المثال الأخير : صدر ، لم يقيّد الصاد بأنها ساكنة ، كما جاء في النص الذي عالج فيه المضارعة (2/426) .

ومما يؤيد ان ما حدث في الصاد هو تقريبها من الزاي قول سيبويه « ولم يبدلوا زايًا خالصة كراهية الاجحاف بها للأطباق » ثم يعقب سيبويه بأنه سمع العرب الفصحاء يجعلون الصاد زايًا خالصة أي بدون أطباق ، وينظر لذلك بذهاب الأطباق لى الإدغام ، ويعني بذلك قولهم « انحصالما ، أي انحصس سالما » (2/418)

أي أنهم يقولون في التصدير : التزدير ، وفي الفصد ، الفزد ، وفي اصدرت : ازدرت .

ويعمل سيبويه المضارعة في حالتي التقريب من الزاي ، او ابدال الصاد زايًا بما نسميه « الانسجام الصوتي » ، فيقول : « وانما دعاهم الى ان يقربوها ويبدلوا ان يكون عملهم من وجه واحد ، وليستعملوا السنتهم في ضرب واحد ، اذ لم يصلوا الى الإدغام (الذي هو أقصى حالات التأثير بين الأصوات المتجاورة) ولم يجسروا على ابدال الدال صادا ، لانها ليست بزيادة كالتاء في الفعل (أي ان الصوت الاول هو الذي تأثر بالتاني وهو التأثر التخلفي) .

واذا كان اللغويون المحدثون يشترطون لتأثر احد الصوتين بالآخر ان يكون التجاور تاما بان يكون الاول مشكلا بالسكون (7) . فان سيبويه قد نص على ذلك عندما قال : « فاما الذي يضارع به الحرف من مخرجه فالصاد الساكنة ، اذا كانت بعدها الدال » (2/426) كما يتضح ذلك من امثلة : التصدير ، اصدر ، الفصد ، اشدق ، اشدر (أي اجدر) ، اجدمعوا ، واجدروا (أي اجتمعوا ، واجتروا) .

وان كان سيبويه قد خالف ذلك عندما قال في موضع آخر : ان في (صدر) تقريبا من الزاي (259/2) . مع ان الفاصل هنا حركة .

ولكن شرط الابدال عند سيبويه الاتحرك الصاد ، فقد قال بعد ان ذكر ان بعض العرب يبدل الصاد في التصدير والفصد زايًا خالصة : « فان تحركت الصاد لم تبدل ، لانه قد وقع بينهما شيء » يعني الحركة الفاصلة بين الحرفين .

وهذا يدل على لهم سيبويه لمعنى التجاور ، وعلى انه يرى ان الحركة تقع بعد الحرف .

ولكن هناك استثناء من شرط سكون الحرف الاول في حالة المضارعة ، اذ لاحظ سيبويه ان العرب قد يضارعون في حالة الفصل بالحركة ، نحو صدقت . ثم قال « والبيان فيها احسن » (2/427) واورد استثناء آخر من شرط التجاور اذ قال : « وربما ضارحوا بها وهي بعيدة نحو مصادر ، والصراط ، لان الطاء كالدال » (يظن سيبويه ان المضارعة خاصة بالدال ، ولهذا يشبه بها الطاء حين وجد مضارعة في الصراط) ثم اورد سيبويه ثلاثة امثلة اخرى تمت فيها المضارعة مع التجاور التام

1 - اشدق ، حيث تجهر الشين ، وهذا معنى قول سيبويه « فتضارع بها الزاي » وسبب الجهر

(7) الدكتور ابراهيم انيس : الاصوات اللغوية : 131 .

هنا ان الشين وهي صوت مهموس جاورت الدال ، وهي صوت مجهور ، فجهر بها لتحقيق الانسجام والتقارب ، وحين يجهر بالشين تقترب من الزاي .. ولما كانت الزاي من مخرج غير مخرج الشين فقد عبر عن ذلك سيبويه في عنوان هذا الباب ، حين قال « والحرف (الشين) الذي يضارع به ذلك الحرف (الزاي) وليس من موضعه »

2 - اجدر ، حيث تنطق الجيم قريبة من الزاي ، اي جيما شديدة التعطيش ، وكتبت عند سيبويه : اجدر ولما كانت الجيم والدال من الاصوات المجهورة ولم يجد سيبويه تفسيراً لهذه المضاربة ، مثل ذلك بالقياس على المضاربة مع الشين في اشدق ، اذ قال « وانما حملهم على ذلك انها (الجيم) من موضع حرف قد قرب من الزاي » يعني الشين في اشدق .

3 - اجدموا اي اجتمعوا ، واجدروا ، اي اجترعوا . والذي حدث هنا ان التاء وهي صوت مهموس جاورت الجيم ، وهي صوت مجهور ، فتأثرت بها تأثراً تقديمياً (الثاني بالاول) فجهر بها اي ابدلت دالا .

وفي موضع آخر يفسر سيبويه ، في ضوء المضاربة والتقريب ، قول العرب فيما كان على وزن مفتعل من الصبر : مصطبر : فيقول « فابدلوا مكانها اشبه الحروف بالصاد ، وهي الطاء ، ليستعملوا السنتهم في ضرب واحد من الحروف ، وليكون عملهم من وجه واحد ، اذ لم يصلوا الى الادغام » (421/2) ومعنى قوله « ليستعملوا السنتهم في ضرب واحد » ان نطق الصاد وهي مطبقة لا يلائم نطق التاء ، وهي مرققة فابدلوا مكان التاء طاء للانسجام بين الصوتين المطبقين .

ومن المضاربة عند سيبويه ايضاً : قلب الشين صاداً اذا كانت بعدها القاف في كلمة واحدة ، عند بني العنبر ، ويعمل ذلك بقوله : « ابدلوا من موضع الشين اشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد ، وهي الصاد » (427/2) ثم قاس على ذلك الغاء والعين « لانهما بمنزلة القاف ، وهما من حروف الحلق بمنزلة القاف من حروف الفم ، وقربهما من الفم كقرب القاف من الحلق » ثم قاس الطاء على القاف ، لانها في التصعد مثل القاف (428/2).

اي ان الشين لما جاورت واحداً من هذه الاصوات المستعلية تأثرت به ففخمت ، وحين تفخم الشين تبدل صاداً . ولكن سيبويه يبين ان « الاصرف الاكثر الاجود في كلامهم ترك الشين على حالها وانما يقولها من العرب بنو العنبر » (428/2).

وفي ضوء المضاربة كذلك يفسر سيبويه قول العرب : ست (اي العدد 6) ويذكر ان اصلها سدس . ويبين ان العرب لم يدغموا الدال : « كرهوا ادغام الدال فيزداد الحرف سينا ، فتلتقى السينات ، ولم تكن السين لتدغم في الدال .. فابدلوا مكان الشين اشبه الحروف بها من موضع الدال ، ليلا يصيروا الى اقل مما فروا منه اذا ادغموا ، وذلك الحرف التاء ، كانه قال سدت ، ثم ادغم الدال في التاء » (428/2)

وبدل على تمق سيبويه في فهم سر المضاربة واستخدامها في تفسير التغير الصوتي قوله في تعليل قول بعض العرب : يستيع بدل يستطيع : « ان شئت قلت : ابدلوا التاء مكان الطاء ليكون ما بعد السين مهموساً مثلها ، كما قالوا : ازدان (اصلها : ازان) ليكون ما بعدها (الزاي) مجهوراً » (429/2) .

اما المضاربة في الحركات (اصوات اللين) فتبدو عند سيبويه فيما يلي :

1 - الامالة (259/2) قال : « فالالف تمال اذا كان بعدها حرف مكسورة ، وذلك قولك هابد ، وعالم ومساجد، ومغايح، ومذافر، وهابيل . وانما امالوها للكسرة التي بعدها ، ارادوا ان يقرئوها منها كما قرئوا في الادغام الصاد من الزاي » اي ان الغرض من الامالة هو الانسجام بين اصوات اللين .

ويؤيد ذلك قوله في باب ما تقلب فيه الواو ياء اذا سكنت وقبلها كسرة (نحو ميزان وميماد) « فكان العمل من وجه واحد اخف عليهم (وجسود حركة الامالة بعد الكسرة) .. كما انهم اذا ادنوا الحرف من الحرف كان اخف عليهم ، نحو قولهم : ازدان واصطبر » (357/2)

2 - في تفسير باب فعل يفعل (مثل فتح يفتح) الذي ورد في الافعال التي هيئها او لامها من حروف الحلق (ا - ه - ع - ح - غ - خ) قال : « وانما فتحوا هذه الحروف لانها سفلت في الحلق ، فكروا ان يتناولوا حركة ما قبلها بحركة ما ارتفع من الحروف ، فجهلوا من الحرف الذي في حيزها

وهو الالف « (253/2) أي ان الفتح لمناسبة حروف الحلق لان الفتحة بعضى الالف ، ومخرج الالف (عنده) من أقصى الحلق مع الهمزة والهاء (2/405) وهكذا نجد ال (Assimilation) وال (Vowel harmony) أي التماثل او المضارعة او التقريب ، والانسجام بين اصوات اللين ، واضحة جدا في فكر سيبويه (ت 180 هـ) .

الادغام الاصغر والتقريب عند ابن جنى

عالج ابن جنى ظاهرة «التماثل او المضارعة» تحت عنوان «الادغام الاصغر» وتعريفه وامثله تنطبق على المضارعة عند سيبويه : يقول ابن جنى في الخصائص (141/2) في تعريفه « واما الادغام الاصغر فهو تقريب الحرف من الحرف وادناؤه منه ، من غير ادغام يكون هنالك ، وهو ضروب . »

وقد اورد ابن جنى من ضروب هذا التقريب : قلب تاء الافتعال طاء اذا كانت الغاء صاد او ضادا او طاء او ظاء (141/2) وقلبها دالا اذا كانت الغاء زاي او دالا او ذالا (142/2) وقلب السين صاد اذا وقعت قبل الحرف المستعمل فتقرب منه (142/2) واورد ايضا تقريب الصاد من الزاي لمجاورة الدال ، في مصدر، والتصدير، وقول العرب في مثل « لم يحرم من فردله » اي من فصد له . ويقدم تفسيراً علمياً في ضوء التقريب ، او الادغام الاصغر ، فيقول في هذا المثل « اصله : فصد له ، ثم اسكنت العين ، على قولهم في ضرب : ضرب (بتسكين الراء بدل خفضها) وقوله (القطامي) :

ونفحوا في مدائهم لطاروا

فصار تقديره : فصدله ، فلما سكنت الصاد فضممت به ، وجاورت الصاد - وهي مهموسة - الدال - وهي مجهورة - قربت منها بأن اضممت شيئا من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر (الخصائص: 144/2) .

ولو ان لغويا محدثا فسر التماثل في هذه الحالة لما خرج مما قاله ابن جنى في هذا التفسير.

كذلك يفسر ابن جنى ما فسر سيبويه من قبل قول العرب : ست (العدد 6) واصلا س دس (الخصائص : 145/2) .

ولم ينس ابن جنى التقريب في الحركات، ونعم من ذلك عنده الامالة « انما وقعت في الكلام لتقريب الصوت من الصوت » اي الفتحة الى الكسرة (141/2) من ذلك عنده الامالة « انما وقعت في الكلام لتقريب العرب : شمير وبعير ورغيف ، بكسر او اللها (143/2) . وقولهم : فعل يفعل (باب فتح) مما عينه او لانه حرف حلقي ، نحو سال يسال وقرا يقرأ .. » وذلك انهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق ، لما كان موضعاً منه مخرج الالف التي منها الفتحة « (143/2) .

وقد تحدث اللغويون واصحاب المعجمات عن المضاربة والتقريب ، وفسروا في ضوءها كثيراً من التطور الصوتي ، ولكن ما قالوه لم يخرج عما وضع أسسه ، وبين حدوده ، سيبويه وابن جنى . اليس لنا ان نقول ان علماء الاصوات العرب القدماء قد سبقوا اللغويين المحدثين في كشف اسرار التفاعل بين الاصوات المتجاورة ، وابتكار نظرية التماثل Assimilation ؟ بلى .